مقصدية بلاغة الخطاب الإقناعي في التراث البياني العربي القديم

أ/ هندة بوسكين
جامعة الجزائر 02

تعدّ دراسة بلاغة الخطاب الإقناعي من أولويات العصر الحديث والتمييز بينها وبين بلاغة التخييل أمر يحتاج إلى نظر وتمعن في درس القدامى ابتداء من " الجاحظ إلى قدامة بن جعفر وابن وهب الكاتب، ثم إلى غيرهم من الدارسين القدامى الذين تنبّهوا إلى خصوصية فني: الشعر والخطابة ثمّ عملوا على التفريق بين طبيعة كل منهما، فالشعر عندهم يهدف إلى التخييل بينما الخطابة هادفة إلى التصديق حسب الأحوال والاحتمال[1]، وممن لوّح أفق هذا المشروع نجد الباحث المعاصر "محمد العمري" الذي بعث من جديد نوعا من البلاغة سبق وأن قدّم لها العرب القدامى وفصّلوا في معطياتها بالتمييز بينها وبين بلاغة التخييل وذلك وفق متطلبات المرحلة. يأتي دور محمد العمري مع غيره ممن سبقوه أو عاصروه بعدما غرفوا من النظريات البلاغية الجديدة واستثمروها وتبيّن لهم مدى تمكّن القدامى على الأقل في زمانهم من تجاوز ما أسماه حمادي صمود بمرحلة التأسيس للدرس البلاغي وبلوغهم به مرحلة الاكتمال[2] مسجلين في ذلك أن بلاغة الخطاب الإقناعي وكذا بلاغة التخييل ينتميان إلى البيان الشفوي الذي نال حظا وافرا من الدرس عند القدامى ابتداء من الجاحظ في نهاية القرن الثاني للهجرة الذي أسس أصوله[3] إلى ابن وهب الكاتب في منصف القرن الرابع للهجرة الذي نظّم أقسامه وصنّف فروعه[4] فكان تعامل ابن وهب مع البيان الشفوي بتميّز أفرد له بابا في كتابه البرهان في وجوه البيان[5] يقابل البيان بالمكتوب في صورة تجلت بالوضوح وكذا تمتعت بالتصميم المنطقي والمنظم وقد منحته هذه المنهجية التقنين لبلاغة الخطاب الإقناعي بعد الجاحظ بطريقة تجلى فيها التعريف الاصطلاحي واتضحت الأقسام بتفريعاتها. كما لا نغفل في زمرة هؤلاء المهتمين نتاج قدامة بن جعفر الذي أظهر في الأفق مدى استيعابه لفنون الأدب العربي وخصائصه وبدا ذلك في كتابيه المشهورين " فن الشعر" و" فن النثر" المنسوب خطأ له[6]. والعجيب أنه رغم وفرة مادة هذا الدرس في بطون مؤلفات القدامى ودقتها إلا أن دور المحدثين في بعثه وإثرائه بالصورة المناسبة له يبقى يحتاج إلى دفع معتبر لتثمين جملة جهود السابقين وتطعيمها بما توصلت إليه الطروحات المعاصرة قصد استكمال مشوار القدامى

ونقل التراث نقلة نوعية تطمئن الباحث المعاصر الذي كلما تعمّق في صلب هذه البحوث يجد المبذول ما يزال لا يلبي احتياجاته مما يُضطر إلى تغيير وجهته نحو المكتبات الأجنبية.

نتوجه بهذه الفكرة إلى إعادة صياغة تساؤلات المهتمين المعاصرين في مجال البلاغة الجديدة بغية تفعيل هذه الاهتمامات البليغة في الدراسات البيانية التراثية، ويأتي اهتمامنا ليصب في مقصد القدامى من تفتيق مجال بلاغة الخطاب الإقناعي أو "فن الخطابة" كما عُرف قديما وحديثا؟ ومن ثمة ما واجب الباحث في زمننا اتجاه هذه الفنون التي عُطّلت وظائفها القيّمية زمنا فتضررت المجتمعات لتغيّبها؟

يكاد يجزم الناظر في طروحات القدامى على الأقل إلى غاية نهاية القرن الرابع أن مؤلفاتهم قد أفصحت عن مقاصد هذا النوع من البلاغة والتي اختصرها الجاحظ في عبارة "إفحام العقول وليّ الأعناق"[7] صيغة تكرر استعماله بغاية توجيه أفكار الناس وتغيير معتقداتهم، وهذا ما بيّنه الكمّ الهائل من الخطب والرسائل التي جادت بها قريحة العربي آنذاك، وعليه فما حصل من تدفق في مجال النثر قديما وإن لم يكن يضاهي منزلة الشعر، فإنه فرض على المهتمين القدامى التأسيس لهذين الفنين والتقنين لهما مع تحديد الفروق الفاصلة بينهما.

إن اعترفنا المسبق بوعي القدامى أثناء تقعيدهم للدرس البلاغي وتمكّنهم من تحرير منتوج معتبر، يجعل الفضول فينا يحوم حول أسباب إهمال المحدثين لهذا الفن الذي يهدف إلى التأثير في الناس وتحوير قناعاتهم بل وأكثر من ذلك تغيير معتقداتهم كما رأى الشريف الجرجاني في مكنون الخطابة وهو يسرد غرضها قائلا " قياس مركب من مقدمات مظنونة من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم"[8]. فإن كان لهذا الفن وقع في المجتمعات وصدى في توجهات الناس ومعاملاتهم كما ذكر الجرجاني فلماذا تقاعس الدارس العربي المحدث عن التنظير لهذه الفنون من باب أن استثمار أغراضها يسد احتياجات المجتمعات العربية الماسة في عالم التواصل والتبليغ. ولماذا لم يستقل هذا الفن بمنهج خاص به يتمتع بآليات وأدوات تثريه كما أثريت بقية الفنون الأخرى كالرواية والمسرح؟.

يأتي حديثنا في هذا المقام عن فن الخطابة أو بلاغة الخطاب الإقناعي باعتبارها فرعا من فروع البيان الشفوي[9] الذي عدّ عند القدامى المفهوم الثاني الشامل لوسيلة الكلام وبتعبير آخر دلالة اللفظ بمختلف مستوياتها التبليغية التي بيَنها الجاحظ بجلاء في كتابيه المشهورين "الحيوان"[10]، و"البيان والتبيين"[11]، ونعتبر انصراف الجاحظ إلى البيان الشفوي ومنه إلى "بلاغة الخطاب الإقناعي" هو سعيٌ لإبراز دلالة "التبيين" التي تعني "التوضيح"[12]، أو الإبانة في أوضح صورها وأقواها، أو ما يطلق عليها اليوم الإبانة بالمنطوق[13]. ومنه لا يمكن التبحر في

مقاصد بلاغة الخطاب الإقناعي إلا إذا كانت لنا قراءة في بيان المتكلمين وعلى رأسهم المعتزلة الذين اختصروه في فكرهم إلى مفهومين أساسين[14]: فهو من جهة - **اسم جامع** لكل ما يتحقق به الإبلاغ - ويكون البيان وفقا لهذا المفهوم شاملا كل ما من شأنه أن يكون سبيلا للانتقال بالمعنى من حال الاستتار والخفاء، إلى حال الظهور والإفهام، فاللفظ، والإشارة، والعقد، والخط، والنصبة، وسائل يستعان بها على توصيل المعنى وفقا لطبيعة كل منها على أساس " أن المعاني القائمة في صدور الناس، والمختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها"[15]. ويظل البيان بهذا المعنى قاصرا أمام مراد مقاصد بلاغة الخطاب الإقناعي، وعليه كان على المعتزلة وفي مقدمتهم الجاحظ ترجيح كفّة البيان الشفوي على بقية الأنواع التبليغية الأخرى حرصا منه مع جماعته على تلبية إملاءات مبادئ فرقتهم وإعطاء الأولوية لوجه واحد من البيان الذي يتناول خصائص اللغة العربية وفنياتها في مختلف المستويات التبليغية[16]. وذلك بناء على قول الجاحظ ". . . . . وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه، ويحث عليه، بذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف الأعاجم"[17]. يُنبئ النص عن الدلالة الظاهرة التي تعني اللسان البشري عموما وإن كان مقصد الجاحظ اللسان العربي ظنا منه أنه أشهر الألسنة بين الأمم لأنه يحمل كل ما جادت به قريحة العربي في فني "الشعر" و"الخطابة".

مما تقدم تكون بلاغة الخطاب الإقناعي قد احتلت مركز الصدارة في التراث البياني العربي على الأقل ما بين القرنين الثاني والرابع للهجرة وذلك وقت أن قويض البيان بالبلاغة ثم قويضت البلاغة بالخطابة"[18]، وما عنى به الجاحظ "والبيان اسم جامع. . . حتى يفضي السامع إلى حقيقته. . . " يحيط بكل أصناف الدليل التي بوساطتها يتم نقل المعنى من حال القوة إلى حال الفعل[19]أو كما عبَر عنها حمادي صمود من" حال الاختزان والبرهان الصامت إلى حال تفضي بالمستدل إلى حقيقتها"[20] يصرح فيها الدارسون المعاصرون بمقاصد القدامى في بلاغة الخطاب وهذا مبلغ من الدقة في مهام البيان الرئيسية والتي لا تتوقف في نظرهم في هذا النوع من البلاغة عند حدّ الإبلاغ، وإنما من مقاصد بلاغة الخطاب أنها ظاهرة بلاغية تفضي بالسامع إلى حقيقة الأشياء التي تعزز معتقدات الإنسان أو تغير قناعاته. فمقصدية بلاغة الخطاب الإقناعي التي شغلت ذهن المتكلمين وفي مقدمتهم الجاحظ ترمي إلى كون البيان انطلاقا من مفهومه الثاني غايته ليست الإبلاغ، وإنما هي محصورة في اعتباره ظاهرة

بلاغيـة تسـعى إلى إلـزام المـتكلم تطبيـق شـروط الإرسـال الجيـد أو شـروط إنتـاج الخطـاب المبين[21] "**فن في القول له شروطه ومتطلباته**"[22] والهدف مـن التطبيـق هـو إذعـان السـامع ولـيّ عنقه ولا يتحقق هذا الحال إلا بالتركيز في ظاهر هذه البلاغة على الشروط الخارجية المتعلقة باللفظ، وهـي مسـائل في نظـر بـدوي أعـم مـن الفصـاحة حيـث إنهـا تـدخل في دائـرة "الفصـاحة واللسـن"[23]؛ وعليـه فهـي تتجـاوز شـروط سـلامة النطـق وعـدم تنـافر الحـروف والألفـاظ وغيرها[24]، وهذا ما أبرزه الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وسر احتلال الجانب الصوتي في الكتاب مكانة مرموقة عند وضعه نظريته البلاغية[25] وبهذا تكون الغاية الأسمى في هذا الفن هـو التواصل بين أفراد المجموعة من أجل تلبية الحاجات وقضاء المصالح باعتماد متبادل مربطه الاقتدار وصدع الحجج التي تقتضيها المقامات، وتبقى الكيفية ملكة يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده، وهكذا يستطيع المتكلم أن يصدع بحجته في المقامات التي تقتضي الإبانة والإفصاح الذي يعني " الاقتدار على الكشف عما في النفس من غير فضول أو سلاطة أو هذر، ومن غير حبسة ولا عيّ، أي أنه الحد الأوسط المحمود بين الثرثرة التي لا جدوى منها، والإفهام الذي هو بمنزلة البكم"[26] وهذه حدود العملية التبليغية في مقاصد بلاغة الخطاب الإقناعي فلا يمكنها أن تخرج عن هذين الحدّين، وهكذا لا يكون همّ المتكلم السعي وراء الجانب الجمالي الفني في خطابه بقدر ما يكون همّه مدى ما يمارسه هذا الخطاب من تأثير وسلطة على السامع تحقق مقصدية الخطيب أثناء خطابه وهذا ما توصل إليه الباحث محمد الجابري وهو يحلل فكر الجاحظ أثناء تنظيره للبيان العربي الذي هو عنده "قبل كل شيء سلطة، سلطة المتكلم على السامع التي لا تقل تأثيرا عن سلطة الحاكم على المحكوم"[27] مقصد جلبه الجابري من تعبير أحد أقطاب المعتزلة الأوائل فيما نقله الجاحظ" إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المئونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحبة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب"[28]. ما التزم به المتكلم أو الخطيب من شروط لتحقيق مقاصد بلاغة الخطاب يبني العلاقة المطلوبة بين المتكلم والسامع أثناء أداء الوظيفة الكلامية كون السامع " هو الهدف من العملية البيانية"[29] وهذا ما جعل القدامى يقرّون في العملية التبليغية أو البيانية في بلاغة الخطاب الإقناعي بعنصري" الإقناع" و"التأثير" وهما المصطلحان اللذان استعان بهما الباحث المعاصر عبد الرحيم الرحموني عندما عرّف فن الخطابة قائلا " فن شفوي أدبي بليغ، يقوم على عنصري الإقناع والتأثير في الجمهور الذي يخاطبه الخطيب"[30] مما يبيّن أن الوظيفة الإقناعية أو التأثيرية تتصدر مقامات حالات الاختلاف وهي أقل مرتبة في الوظائف البيانية من الوظيفة الحجاجية التي تتأتى في حالات

الخصام[31] مسائل تعرض لها القدامى وهم يتناولون مستويات التبليغ والخطاب ويمكن الاستدلال بالجاحظ الذي استحضرها واهتم بها بشكل خاص[32] عندما قايض البلاغة بالخطابة من أجل تحقيق الوظيفة الإقناعية التي تتأتى بثنائية " الفهم والإفهام" التي تتحقق جرّاء التلازم الحاصل بتناغم بين ملكة الكلام وملكة الفهم[33] والمقصود بثنائية الفهم والإفهام الواردة في نصوص القدامى " ليس الفهم والإفهام بالمعنى التعليمي الهادئ هو ما تعبر عنه هذه النصوص، بل الواقع أنها تتجه اتجاها إقناعيا ممتدا بين قطبي الاستمالة والاضطرار، مع تداخل هذين المستويين خاصة في الوسائل المؤدية إليها"[34]. إن هذه الوظيفة عدّها المحدثون من المستوى الإقناعي التداولي الخاص والذي يعد المستوى الثاني في المستوى المعرفي العام للبيان اللغوي والسيميائي، فهو الخطاب الشفوي [35]، وهو البعد الذي يؤكده الجاحظ من خلال عملية التراجع التي اهتدى بها إلى بلاغة الخطاب الإقناعي وهذا ما يقرّ به محمد العمري صاحب مشروع البلاغة الجديدة في تصريحه التالي بقوله" يقدم الجاحظ تصوره لبلاغة إقناعية قائمة على الصواب اللغوي والتوسط البلاغي في حوار مع المقام" [36] إجراء استدعى من الجاحظ التركيز على أمرين مهمين أثناء تنظيم البيان الشفوي المطلوب عند المعتزلة في معركتهم الفكرية: أولهما اهتمامه بالمقام في مقابل البناء اللغوي، وثانيهما اعتماد مبدأ الاختيار من التراث العربي[37] وخلص بذلك إلى تهيّئة نظرية بلاغية تفاعلت ثقافتها العربية الإسلامية مع ثقافات أخرى تسربت إليها من أمم أخرى، وأنتجت لنا من البلاغة بلاغات أهمها بلاغة الخطاب الإقناعي. فما كان من اهتمام أبداه الجاحظ ومن خلفه من العلماء لهذا النوع من البلاغة كان نتيجة تيقن هذه الفئة بدور هذه البلاغة الخطير في توجيه الرأي العام وبلورة فكره وإعداد معتقداته. [38]

نخلص في الأخير إلى أن مغزى القدامى وفي مقدمتهم الجاحظ المنظر الأول للبيان والبلاغة العربيين وكذا من سلك نهجه فيما بعد تعاملوا مع هذا النوع من البلاغة وعملوا في مستوى بلاغي معين[39] يستدعي التوجه إلى الوظيفة الإقناعية واستغلالها في البيان العربي واستثمارها بمفهوم يجعلها تمتدّ في الوظيفتين الإخبارية والحجاجية كما ذكر العمري دون أن تصل الوظيفتان الأولى والثانية إلى درجة الظهور كغرض مستهدف توضع له آليات مضبوطة[40] اقتضتها المرحلة وتطلبتها، وما كان من اهتمام في هذا الشأن عند القدامى كان مصدره الهموم الشخصية والمذهبية التي عرفها أصحابها وعايشوها في واقعهم.

هوامش البحث:

[1] انظر، محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربي، الخطابة في القرن الأول نموذجا، أفريقيا الشرق، لبنان 2002، ص: 7.

[2] انظر، حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، منشورات الجامعة التونسية، ص: **12**

[3] انظر، الجاحظ، البيان والتبيين، تحق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، لبنان2003، ج1:.

[4] انظر، ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تقديم وتحقيق، حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، 1969

[5] انظر الباب الرابع والأخير من المرجع نفسه

[6] انظر، قدامة بن جعفر، نقد النثر، تحق: طه حسين وعبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، 1980، المنسوب خطأ إليه وهو جزء من كتاب البرهان في وجوه البيان، انظر، مقدمة تحقيق حفني محمد شرف.

[7] انظر، الجاحظ، المرجع السابق، ص: 56

[8] الشريف الجرجاني، التعريفات، ص: 104.

[9] انظر، محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المملكة المغربية1999، ص: 70

[10] انظر، الجاحظ، الحيوان، تحق وشرح: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، لبنان، ط/3 1969، ج: 4، ص: 289

[11] تفحص مباحث " البيان والتبيين " التي تهتم بالمجال الفظي والتلفظي، ج1، ص: 14، 15، 16، 48، 111، 134

[12] انظر، عبد الوهاب الأزدي، اللغة السامية، بحث في دلالة البيان، المطبعة والوراقة الوطنية، المملكة المغربيةط1، 2009، ص: 54

[13] انظر، محمد هلال المزوغي، كتاب البرهان في وجوه البيان، دراسة وتحليل، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها، إشراف: أمجد الطرابلسي، المملكة المغربية1991، ص: 6

[14] محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص44

[15] البيان والتبيين، ج: 1، ص: 56.

[16] انظر " حامد صالح الربيعي مقاييس البلاغة بين العلماء والأدباء، سلسلة بحوث اللغة العربية، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة1996، ص: 594

[17] البيان والتبيين، ج1، ص: 56

[18] انظر محمد العمري، البلاغة العربية، ص: 220

[19] انظر، عبد الوهاب الأزدي، اللغة السامية، ص54

[20] حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ، ص: 162

[21] انظر، محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 31

[22]، انظر، محمد عابد الجابري، ، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، نقد العقلالعربي(2)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان ط8 2007 ص: 26

[23] بدوي طبانة، البيان العربي، مصر ط2 1955، ص: 60 وكذلك معجم البلاغة العربية، ، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط4 جدة، ص: 101

[24] فصل في هذا الجانب إدريس بلمليح في كتابه الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، المملكة المغربية ط1 1984، ص: 145

[25] انظر، محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، أفريقيا الشرق، المملكة المغربية2001، ص: 70

[26] البيان والتبيين، ج1، ص: 56

[27] بنية العقل نفسه، ص: 31

[28] البيان والتبيين، ج1، ص: 81

[29] محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 25.

[30] عبد الرحيم الرحموني، الخطابة العربية الإسلامية، دراسة في المتن والفن، مطبعة آنفو ـ برانت، المملكة المغربية ط2 2005 ص: 13

[31] انظر، محمد العمري، في البلاغة العربية، ص: 212.

[32] انظر، المرجع نفسه، ص: 213

[33] انظر، ومزات، ك، بروكس، النقد الأدبي، تر: حسام الخطيب ومحي الدين صبحي، دمشق1973، ج1/ ص: 110

[34] انظر، محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 199

[35] عبد الرحيم الرحموني، الخطابة، ص: 200

[36] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[37] انظر، محمد العمري، البلاغة العربية، ص: 24

(38) إعادة الولايات المتحدة منذ عقود في ماهية البلاغة ووظيفتها وذلك بتحويلها من مادة ملحقة بتعليم الانجليزية إلى مادة مستقلة في شعبة خاصة بفن التواصل وخطاب الإقناع" انظر، علي الحمادي، فن الإقناع ومحمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 14.

(39) محمد العمري، البلاغة العربية، ص: 199

(40) انظر، المرجع نفسه، ص: 213